

# أنطون الجميل باشا

بمناسبة الذكرى الثالثة لوفاته

للأستاذ منصور جاب الله

-----

كانت المرزاة في المنفوره الأستاذ أنطون الجميل باشا أليمة ، إذ قضى نحبه فجر اليوم الثالث عشر من يناير عام ١٩٤٨ ولم يكن بين منصرفه من عمله ووجيئته إلا ساعة وبمض ساعة ، ولم يكن بين وجيئته واحتضاره إلا دقيقة وبمض دقيقة ، وكذلك لم يشأ القدر لهذا الرجل المترن الرزين السامل الناصب أن يشكو دنفاً أو يضيئ به أحد من أهله ومريديه ، قضى في صمت إلى دنيا غير هذه الدنيا ، ووجد الله فلقاه حسابه .

وتقد وصف أنطون الجميل في حياته وبعد موته بأنه رجل رزين مترن ، والذين لم تكن لهم خلطة بالفقيد يحسبون أن رزاة الرجل إنما كانت مصروفة في زم اللسان والهدوء ، فلا يتكلم إلا بمقدار ، وأنه تجوز به الأحداث الجسم فلا يتحرك لها ولا ينبض له عرق . وما هكذا كان أنطون الجميل الذي عرفنا وسعدنا بعشرته وتلمذنا عليه ، وإني لأشهد أني عرفت منه رجلاً ثائراً لا يهدأ إلا على مضض ، يهدر كالفحل إذا مست كرامته أو نال أحد من زاهته ، وسيأتي الكلام بعد عن موقفه من أحد رؤساء الوزارة ليدرك الناس أي رجل كان هذا الرجل بين الرجال .

واقدم كان فقيدها أدباً رقيقاً قبل أن يكون صحيفياً بييد الصوت والشهرة ، والذين علت بهم السن من أمثال كاتب هذه السطور يدركون الكانة الأدبية التي كانت عليها مجلة « الزهور » لمنشأها « أنطون أفندي الجميل » كما كان يدعى في ذيك الحين .

وامل أشهر كتبه وأحظاها عند القارئ كتابه عن شوقي ، وقد كان الجميل أنيراً عند أمير الشعراء ، وكان من جلسائه الذين يأنس بهم وبمصطفهم ، إذ كان بالرجل وحشة فلا يأنس بكثير من الأنامي ، وإنما ينبو به المقام في كل مكان فلا ينطلق في الحديث إلا إذا خلا له وجه صديق أو صديقين كما حدثنا بذلك فقيده البيان المرحوم الشيخ عبد العزيز البشري .

وكان له باع في الترجمة من الفرنسية خاصة إلى اللغة العربية

ومنذ ثلاثين عاماً نقل إلى العربية كتاب « الفقاة والبيت » ووضع له مقدمة شيخ الشعراء المنفور له إسماعيل صبرى باشا ، وكتب مؤخرته شيخ الأدياء السيد مصطفي لطفى المنفلوطي وعرفت وزارة المعارف لهذا الكتاب قدره فأقرته لمدارس البنات

والأدب عند أنطون الجميل غاية لا وسيلة فما كان بدور بخلاؤه يوماً من الأيام أن يتكسب منه ، وكذلك قطع أن يكون مترجماً في وزارة المالية لقاء أجر صغير ، ثم سما به المنصب حتى استقال من خدمة الحكومة وهو « سكرتير » للجنة المالية

ولتركه خدمة الحكومة قصة طريفة لا بأس من إيرادها

فقد قسمنا علينا بنفسه في مجلس من مجالسه الموثقة إذ غدا عليه ضحى يوم من الأيام المنفور له جبرائيل تقلا باشا وطلب إليه أن يستقيل من وزارة المالية ليصملاً رئيساً لتحرير صحيفة الأهرام

خلفاً للمرحوم داود بركات . فأجاب الجميل : « وأين أنا من داود

بركات ؟ دعني في حلي هذا ولا تحاول أن « تكشفي » ولا

تفضحني بين الناس ! ودام الجدل بينها ساعة وبمض ساعة بغير

إفئاع ولا انتناع ، وإذ سقط في يد تقلا باشا قال لصاحبه :

اعطني ورقة بيضاء . ثم مضى يكتب فيها شيئاً لم يتبينه أنطون ،

وبدئاً استأذنه في الانصراف فلما سأله عن غايته أجاب بأنه

يريد لقاء وزير المالية ، وألحف عليه في الرجاء عن الغاية التي يريد

من أجلها لقاء الوزير ، فأجاب تقلا باشا في انفصال شديد : أريد

أن أقدم إليه استقالة « أنطون بك الجميل » فذعر أنطون بك

وقال لصاحبه ولكنني لم أقدم استقالتي ولم أكتبها . وعندئذ

سأزحه صاحبه بقوله : لقد كتبت الاستقالة ووقعتها باسم

« أنطون » الجميل وسأرفمها بنفسي إلى الوزير ، وما عليك إلا أن

نظمن بالتزوير وتطلب محامكني لأنني مزور !

وبكى عندها أنطون الجميل كما لم يبكي في حياته ومضى مع

صاحبه إلى وزير المالية حيث رفع إليه استقالته ليتولى من فده

المعمل في الصحافة حتى أودت به الصحافة !

والحق أن أنطون الجميل سما بالصحافة وأحدث بها تقاليد

بقيت ما بق حياً ، فلما انتقل إلى الدار الآخرة انتقلت معه -

والأسفاه - إلى الدار الآخرة !

ومن هذه التقاليد ألا تتمرض صحيفة لما كتبه صحيفة أخرى

استقالته ورجاه - مع هذا - أن يرجع نفسه فلا يحضر كل جلسة ولكن الرجل العظيم أبى هذا قائلاً : إما أن أؤدى العمل على وجهه وإما أن أدعه لغيري .

وأنعم عليه بالباشوية إثر استقالته من مجلس الشيوخ ، وقال خصومه إنه إنما استقال لينعم عليه بالباشوية وأحدث هذا القول موجدة في نفسه ، وأحسب أنه حدثني في ذلك فقلت له : لا عليك من كلام الناس . فلو لم تكن رجلاً ذا شأن ما تحدثت عنك أحد ا

أما الموقف الذي أذكره له مع أحد رؤساء الوزارة ، فقد مضى عليه أكثر من عشر سنين ، وغيب الذين شهدوه في عالم غير هذا العالم ، ونحن اليوم في حل من إرادته بشيء من الإيجاز فقد جاء أحد « المحبرين » لأنطون « بك » الجليل نبأ في شهر سبتمبر عام ١٩٤٠ مؤداه أن الجيش الإيطالي اقتحم الحدود المصرية من جهة الغرب ، وتربث الجليل كهادته ، فلم يشأ نشر الخبر لوقته وإنما أرجأه يوماً أو يومين ، ثم عرضه على وزير الحربية ، وأجازته الرقابة فنشره ، وإذ بصري به رئيس الوزارة حينئذ - وهو المقور له حسن صبري باشا - حاج هانجه ونسي الصداقة الوثيقة التي تربطه بأنطون الجليل وكتب بلاغاً « رسمياً » قاسى الالهجة لأذع الأسلوب يرى فيه كاتب الخبر بالتزبد وإثارة المواطنين .

ولم يفعل أنطون الجليل شيئاً إزاء هذا التحدى إلا أن أشهد وزير الحربية على صحة الخبر ، ثم بدأ تحديه لرئيس الوزارة ففتح نشر أبناء مقابلاته وحفلاته ، وكان ينشر خبر اجتماع مجلس الوزراء مجرداً من ذكر اسم رئيس الوزراء ، ويطوف رئيس الحكومة في البلاد فلا يذكر عنه شيئاً ، وتنشر صور الوزراء جميعاً وتحذف صورة كبيرهم ا

وهكذا ، وهكذا ، حتى ضاق المقور له حسن صبري باشا ذرعاً ، وبذل الوساطات والشفاعات لدى أنطون الجليل ، حتى أنه أرسل إليه يقول : أرجو أن تشتمني في جريدتك وتقول في ما قال مالك في الخبر ، أما أن تهمل ذكر اسمي مرة واحدة فهذا ما لا طاقة لي باحتماله

وتدخل المرحوم عبد الحميد سليمان باشا في الصالحة ، وتشرط

بالتكذيب أو التفتيد ، وأن ينشر الخبر على علانية دون تذييل أو تعليق ولاقارى أن يفهم منه ما يشاء ، وأن تقدم المصلحة العامة على السبق الصحفي فإضرب الصحيفة المترنة التي تحترم نفسها أن تروج يوماً وتبور يوماً مادامت المصلحة العامة لم تمس في قليل ولا كثير . وأذكر في هذا السبيل أبى كنت أزوره في ليلة من الليالي إن أزمة سياسية حادة وجىء له ببرقية مطولة أرسلها مراسل الصحيفة من لندن ، فتصفحتها طويلاً ، ثم ألقاها إلى قائلاً : اقرأ ، فلما أتمت تلاوتها سألتني رأيي فيها فقلت « برقية خطيرة جداً » فسألتني : أترى من المصلحة نشرها ؟ قلت : لا . فألقى بها جانباً ولم تنشر ، وعلمت فيما بعد أن نققات هذه البرقية تجاوزت مئة جنيه ، وأنها لو نشرت لكان لها شأن أى شأن . ومن هذه التقاليد ألا تستغنى صحيفة من الصحف عن محرر يعمل بها وإن أسسك عن العمل أيما فقد يكون له عذر ، ولكن هذه التقاليد جميعاً صارت مع الحسرة والألم في خبر كان ا

واختير أنطون الجليل عضواً في المجمع اللغوي ، فتهيب الاختيار بادی الرأي ، ثم لم يلبث أن خب في أعمال المجمع ووضع ، وكان من أشد الأعضاء . واطبة ومن أشدهم جـلداً على العمل وأكثرهم إنجازاً لما يطلب منه .

ولما عين عضواً لمجلس الشيوخ رأى فيه أعضاء « المجلس الأعلى » لونا جديداً من البرلمانيين ، فهو رجل لا يسف ولا يهتار ولا يمدد إلى المناورة أو الدائرة ثم هو يحاط الأدب بالسياسة فيرتل الشعر في أثناء مناقشة الاستجوابات والبحث في الميزانيات ، ويدعو الوزراء إلى التشبه بأبي الدوانيق أو أبي جعفر المنصور ا

بيد أن أنطون الجليل لم يطق البقاء في مجلس الشيوخ زمناً طويلاً ، فقد رأى أن عمله البرلماني يتعارض وعمله الصحفي ، وإذ تضارب المملان وتناقضا ، كان لا مناص له من ترك أحدهما ، ولو كان جبرائيل نقلاً باشا حياً وتمتد لترك العمل الصحفي غير آسف ، ولكن صاحبه مات وترك الأمانة في يده ، فلأمندوحة له من الاستقالة من مجلس الشيوخ ، وارتج المجلس الأعلى لاستقالة الرجل وأبى عليه قبولها وبذل عنده الشفاعات والوساطات ، وذهب إليه رئيس الشيوخ يسعى كي يعدل عن